



(الحلقة الأولى)

بقلم الأستاذ: محمد ولد إمام

أود أن أشير هنا إلى أنني في هذه القراءات، إنما أصدر عن هوىً خالص في نفسي وطرب للشعر، فلم أكتبها لأنال شهادة أكاديمية في الأدب أو النقد، وليس هذا تخصصي الأكاديمي، ولم أكتبها لنيل جائزة في البحث، وإنما هي خواطر محب شُغف بالشعر الجميل، وأحب أن يشاركه تجاربه وقراءاته مع الناس، والغريب، كما قلت مرارا، هو أنني لم "أدرس" المتنبي في الدراسة التقليدية "المحظرة" ولا في الدراسة النظامية بعد ذلك، عكسَ بعض الشعراء الآخرين، مثل شعراء الجاهلية الستة (في صباي تم تحفيظي دواوينهم قسرا، وما زلت أحفظ أغلبها إلى اليوم، وكذلك ديوان الحماسة فيما يسمى قديما بالزرك وهو تمارين على الإعراب بالشعر حيث نعرب الأبيات ثم نحفظها).. وقد دونت هذه الدواوين في دفاتر وصحف متفرقة (تسمى عندنا الكنانيش جمع كناش أي كشكول من صفحات متفرقة) ولاحقا قمت في إطار مشروع رقمنة التراث برقمنة ثلاثة من كنانيشي الخاصة وإتاحتها للجميع على موقع الأرشيف... ورغم أن أبا الطيب لم يُفرض علي ولم يكن يوما جزءا من تكويني ولا تدريسي يجب علي حفظه أو دراسته، إلا أنني أحفظ ديوانه تقريبا كاملا، لا عن قصد ونية، وإنما لاستحسانه والطرب له، فأجدني أكرره بيني وبين نفسي وهكذا يرسخ في ذهني، مع تأمله وتذوقه.

ولعل من أول ما لاحظته من قراءاتي لديوان المتنبي أنني عندما أطالع تراجم الرجل أرى شخصاً مختلفاً عن الشخص الذي أجده عند قراءة الشعر، ولأسباب عديدة، أقدّمُ الشعرَ على الأخبار التي أرى في معظمها تحاملاً غيرَ خفي.

ثم إن الشعر في حد ذاته وثيقة تاريخية مقدّمة على آراء المعاصرين ومن تبعهم، فهم أصحابُ أغراض وأهواء، وكما قيل فالمعاصرة تمنع المناصرة..

وقد تعرفتُ عن قرب على شعر المتنبي في وقت متأخر نسبياً، حيث كان أول احتكاكي بالشعر عن طريق الكتّاب التقليدي (المحظرة)، حيث بدأتُ بالشعر الجاهلي عبر دواوين الشعراء الستة الجاهليين، كما أسلفت، ومن ثم مقطعات من ديوان الحماسة وبعض الأشعار المحلية، وكانت هذه النصوص تُفرضُ علي فرضاً لا تذوقاً ولا اختياراً مني، عكس شعر المتنبي.

أذكر أن الأديب المازني كتب في "حصاد الهشيم" ملاحظة تصدقُ عليّ أيضاً حيث قال إن ديوان أبي الطيب لم يكن مقرراً عليه ولا في مكتبته حتى، ورغم ذلك فهو يحفظ له أكثر مما يحفظ لأي شاعر آخر!

وفي بيئتي لم يكن ديوان أبي الطيب متداولاً ولا مما يُدرس للصغار في الكتاتيب عندنا، فلم أتعرف عليه إلا وأنا شاب، ولكنه كان عشقاً من أول نظرة كما يقولون، فمنذ أول قراءة لقصائده وأنا مولع بها، حتى إنني حفظت أغلبه من دون أن أدري أو أنوي ذلك! بل كانت قصائده لجودتها تفرض نفسها عليّ فرضاً وتظل معششة في فكري حتى أجدني أرددها وقد حفظتها..

ومن خصائص شخصية المتنبي الظاهرة في شعره هي قوميته البارزة، وتوجعه لما حل بالأمة العربية في ذلك العهد الموسوم بالاضطراب السياسي، حيث استحوذ الأغراب والأعاجم على مفاصل الدولة الإسلامية، وأصبح خلفاؤها خواتم في أيديهم، وكان أبو الطيب يرى ما هم فيه من الذل والتشرذم والاستخذاء، فكان ذلك يؤلمه أيما إيلام، فهناك الديلم والتنوخيون والإخشيد والترك، وكلهم يحكم جانباً من أرض الخلافة، وأخذ أبو الطيب على عاتقه إدالة "دولة الخدم" هذه كما يسميها.

ورغم أن أبا الطيب في بعض يأسه قد مدح بعضَ هؤلاء الأعاجم، مثل الأمير بن طغج وكافور بعد ذلك وغيرهم، إلا أنه كان مدحا أقرب للرُّقى كما قال هو، والمتأمل لقصائده في هؤلاء الأعاجم، يجد فيها كثيراً من الإشارات التي لا تخفى على ذي لب من ذمّ للدهر وأهله، ومن استعلاء وفخر لا يخلو من تعال عليهم، وكان ذلك منه اضطراراً كما أرى، وكما أشار هو، في اعتذاره للأدب والشعر، عندما قال:

وشعر مدحتُ به الكركدنّ
بين القريض وبين الرُّقى
فما كان ذلك مدحاً له
ولكنه كان هجوَ الورى

إن المتنبي لم يكن يمدح بالمعنى التقليدي بل كان كأنه يصبغ خصاله أو يخلعُها على الممدوح، وذلك غالباً بعد أن ينوه بنفسه وبمكانته ومجده، وأعتقد أنه يختلف حسب الممدوح، فإذا كان أعجمياً أطنب المتنبي في إبراز خصاله هو ومدح نفسه الكريمة قبل ممدوحه ولعله أيضا يشير ضمنيا بذلك إلى ما يجب أن يكون عليه القائد عموما ليستحق القيادة.

فهو يمدح نفسه ثم قصيدته، ثم ما يجب أن يكون عليه القائد أو الشخصية المجيدة عموماً.

فلهذا المدح أكثرُ من وظيفة فهو توجيه في طيه ملامٌ أحيانا، وهو أيضا إسقاطٌ لما يراه هو في نفسه على ممدوحه، وهو أيضا رأيُه فيما يجب أن يتحلى به الزعماء..

هَمسات تراثية

محمد سيد احماده

من حكمة القرود

عرف المجتمع الموريتاني بالعبقرية والذكاء سواء في تكيفه مع الظروف المناخية أو من خلال روابط نسيجه الاجتماعي وقد عمل هذا المجتمع على تربية أجياله عبر مجموعة من القوانين الصارمة والمناهج المعقلنة التي تجعل الطفل منذ نشأته يجمع في ذاكرته ما وقع عليه بصره أو وصل إلى سمعه من معلومات حتى إذا بلغ مرحلة اتساع العقل بدأ يعي ويستوعب تلك الأشياء التي علقت بذاكرته من خلال خيوط قوية أحدثتها أساليب تنسيق فريدة جعلت الصغير مشدوها من البداية إلى المرسل حتى تكتمل الفكرة وقد جاء أغلب ذلك إما على ألسنة الحيوانات أو عبر الوسائط التربوية الأخرى.

ومن ذلك حكايات نوردها هذه المرة، ونحن نعيش أيام الصيام المباركة ونعيش أياما خاصة أبدى فيها الموريتانيون نضجهم من خلال التزام أغلبهم بالإجراءات الاحترازية ضد جائحة كورونا نرجو من الله أن تزول وأن يعيش العالم بعدها سلما ورخاء وسنرى من خلال هذه الحكايات كيف أن أسلافنا قدموا لنا دروسا خالدة في ضرورة الالتزام بالضوابط والقوانين عند ما يكون ذلك ضروريا لنتنازل عن الخصوصيات مغلبين المصلحة العامة آملين في بناء وطن قوي تظل الجميع رايته ويذوب الكل في خدمته، فعندما تناقلت الأنباء أن الملك سيقيم حفلا كبيرا في مناسبة من مناسبات الدولة وأن الجميع مدعو للمساهمة في إنجاحها بدأت سيدة من القرود تحضير نفسها استعدادا ليوم الزينة وما إن أكملت إجراءاتها حتى فوجئت بهذا النبإ: أصدر الملك أمرا يقضي بأن الحفل محرم حضوره على كل من يملك ملامح غير جذابة فكانت المفاجأة الصادمة التي جعلت السيدة تقف أمام المرآة وبعد تأمل وتفكير قالت مخاطبة نفسها: لست قبيحة لكنك لن تحضري الحفل، في حين مرت سيول عارمة فحملت مجموعة من القرود وقائدها وبعد لحظات استشار الخلصاء القائد: ما العمل؟ فتريث قليلا وهو يشاهد جزءا من ذيله أمامه بعد قوة السيول وقال: أنا لا أجيب على الأسئلة إلا عندما يكون ذيلي في مكانه الطبيعي. لقد تفاوتت أحداث هاتين الحكايتين لكنهما أجمعتا على ضرورة اتخاذ القرار السليم في الوقت المناسب وعلى ضرورة حساب عواقب الأمور وفي ذلك درجة كبيرة من الوعي والإنصاف تجعلنا نتذكر بطل الحكاية الثالثة الذي قال عند ما رأى وجهه في المرآة: هذا زاد ياسر.

رمضان كريم.